شعْرُ الطَّبِيعةِ في الأَدَب الأَنْدَلُسي بين الأَصالةِ والتقليد

آدم محمد أحمد الحاج الزاكي
محمد داود محمد داود
جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا – كلية اللغات
جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا– جامعة جازان– السعودية

المستخلص :
تناولت الدراسة شعر الطبيعة في الأَدَبِ الأَنْدَلُسي بين الأصالة والتقليد، وتتمثل أهمية الدراسة في توضيح علاقة الشعر الأَنْدَلُسي بالشِعْر المشرقي من حيث الأصالة والتقليد، وأثر الطبيعة في الشعر الأَنْدَلُسي، وتهدف إلى تحديد أثر الشعر المشرقي في شعر شعراء الأَنْدَلُس، واتبعت في الدراسة المنهج الوصفي التحليلي المقارن وتكونت الدراسة من قسمين الأوَّل الإِطار العام وفيه: المقدمة وأهمية الدراسة، وأهداف الدراسة، ومنهج الدراسة وحدودها، ثم أقسام الدراسة .
والقسم الثاني الإِطار النظري للدراسة، ويتكون من تمهيد وأربعة مباحث: الأوَّل مفهوم شعر الطبيعية وبواعثه في الأَدَبِ المشرقي، وفيه مفهوم شعر الطبيعة وأسباب ازدهاره في الأَدَبِ المشرقي، ونماذج من شعر الطبيعة عند المشارقة، والمبحث الثاني: شعر الطبيعة في الأَدَبِ الأَنْدَلُسي وعوامل ازدهاره، والمبحث الثالث: خصائص وسمات شعر الطبيعة في الأَنْدَلُس، والمبحث الرابع: نماذج من الوصف في شعر الطبيعية الأَنْدَلُسي ثم خاتمة الدراسة والمصادر والمراجع .
الكلمات المفتاحية : المشارقة والمغاربة الأصالة والتقليد– الطبيعة الصائتة – الطبيعة الصامتة.

ABSTRACT:
Extract of the study The study poetry of nature in Andalusi literature between authenticity and tradition, the importance of the study is to clarify the relationship of Andalusian poetry, El-hair in terms of originality and tradition and the impact of nature on the Andalusian poetry, designed to determine the effect of poetry in El-Andalus and poets followed in the study of comparative and descriptive analytical study consisted of two parts, first the general framework and the introduction and the importance of the study, and the study objectives, approach and limitations of study, then study sections.
And second, the theoretical framework of the study consists of four detectives, I rebooted and the concept of natural hair and its causes in the literature in which the concept of poetry, El-nature and causes of prosperity in El-literature and samples of hair nature when Orientals, and section II – nature in Andalusi literature and factors of prosperity, and the third section properties and features of poetry in Andalusia, and section IV models of description in natural hair Andalusian and conclusion the study sources and references.

المُقدِّمة:

يكاد لا يخلو بحث أو " كتاب" عن الأَدَب الأَنْدَلُسي من قضية الأَصالة والتقليد بين الأَنْدَلُس والمشرق، حتى غدت إحدى المشاغل الكبرى لدى نقاد ومؤرخي الأَدَب العربي من عرب وغيرهم، محاولين التعرف على مظاهر الإبداع والاتباع في الأَدَب الأَنْدَلُسي، وأنقسم الباحثون حول علاقة الشِّعر الأَنْدَلُسي بشعر المشارقة إلى فريقين : أهو شعر مستقل كل الاستقلال له طابعه الخاص وسماته ومميزاته أم هو محاكاة" وتقليد" للشِّعر المشرقي، يرى الفريق الأَوَّل: وهم أكثر الباحثين، أنَّ الشِّعر الأَنْدَلُسي عبارة عن امتداد للشِّعر المشرقي فهو تابع" له، ويرى الفريق الثاني: أنَّ الشِّعر الأَنْدَلُسي مستقل بذاته عن شعر المشارقة فهو غير تابع له، وإنما بينهما روابط عامة .

والذين يقولون بتقليد القصيدة الأَنْدَلُسية، يرون أنها صِيغتْ على نمط القصائد المشرقية، ويقصدون بالنمط المشرقي التقليد في كل شيء مثل الوزن، والرَّوي ،والقافية، والبحر. ويتخذون من كلام ابن بسام حجة لهم حينما قال : ((....ألا أن أهل هذا الأفق أبو إلَّا متابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أَخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب" أو طنَّ بأقصى الشام أو العراق ذباب" لجثوا على هذا صنماً وتلوا ذلك كتاباً مُحْكماً)). (ابن بسام : 1998م،115). ولكن ابن بسام نفسه يقول قبل هذه الفقرة في وصف أهل الأَنْدَلُس: ((لعبوا بأطراف الكلام المشقق لعب الدُّجي بجفون المُؤرق، وحدوا بفنون السحر المنمق حداء الأعشى ببنات المحلق، نثر" لو رآه البديع لنسي اسمه، ونظم" لو سمعه كثير" ما نسب ولا مدح، أو تتبعه جرول ما عوى ولا نبح...)) ثم يقول في موضع آخر واصفاً أهل الأَنْدَلُس كذلك : ((...إنهم رؤوس شعرٍ وكتابةٍ، تدفقوا فأنسوا البحور ،وأشرقوا فباروا الشموس والبدور)) (ابن بسام: 1998م، 120).

وكذلك يقول الرافعي – مبيناً مدى التقليد عند الأَنْدَلُسيين– ومعلقاً على قول ابن بسام السابق : ((إنَّ ما عناه ابن بسام هو منافسة الأَنْدَلُس لأهل المشرق في الملك والسياسة تبعتها المنافسة في مظاهر هذا الملك وما يستلزمه من الحياة العلمية والأَدَبية، أما الشِّعر فإنه لم يقصده كما زعم الزاعمون، "أَنَّ شعر الأَنْدَلُسيين ككل مظاهر حياتهم، يغيبُ في سواد التقليد، ويدخل في شعر الأقاليم الأُخرى بحيثُ يشتبه النسيج وتلتحم الديباجه، فهو لا يعرف الشِّعر إلا بأوزانه، ولا يميز غير ظاهره فإنَّ للشِّعر بنوع خاص دون سائر العلوم والمعارف روحاً كروح الإنسان تستوي مع الجنس كله في جملة الأخلاق وتختلف في مفرداتها، حتى لقد يجد اللبيب الحاذق من التفاوت بين أنواع الأشعار إذا هو استقرأها وتقصص تواريخ أصحابها ما يصح أن يخرج من علم الفراسة الشِّعري)). (الرافعي : 1986، 11).

في تقديرنا إنَّ إصدار الحكم على الشِّعر الأَنْدَلُسي بالتقليد المحض من الوهلة الأَوَّلى حكم" قاصر؛ لأنَّ القوافي والأوزان والرَّوي ليس مقصوراً على فريق من الشُّعَراء دون فريق، ولو كان الأمر كذلك لوقف الشِّعر العربي عند العصر الجاهلي؛ لأَنَّ الشُّعَراء الجاهليين قد استنفذوا كل الأوزان والقوافي فلا يصح لشاعر من بعدهم أنْ ينظم شعراً, وأنَّ هذه المشابهات في الوزن والقافية والرَّوي لا حصر لها في دواوين الشُّعَراء، منذ وُجِد الشِّعر, والحق أنَّ الشِّعر لا يقاس بالوزن ولا بالرَّوي فأَنَّ البحور والقوافي ملك الشُّعَراء جميعاً وإنَّما الشأن في الصياغة والمعنى والشعور، فالشِّعر ملكة طبيعية ولا تتأتي بالمحاكاة، وموهبة من

المواهب التي لا يختص الله بها جيلاً دون جيل ولا إقليماً دون إقليم فحيث مرت مع الدم في جسم صاحبها، ونبض بها حسه وتفتحت لها نفسه، انطلق كالطائر الغرد، والبيئة الأَنْدَلُسية توافرت فيها كل الظروف والمقومات التي تجعل من الشَّاعر شاعراً، وحتى على سبيل تطابق المعاني والذي عاب فيه بعضهم على الأَنْدَلُسيين نجد أنَّ الكثير من القدامي قد أجازوه قال صاحبه الصناعتين : ((ليس لأحدٍ من أصناف القائلين غنى عن تداول المعاني ممن تقدمهم والصب على قوالبـــهم)) (المُقَرِّي : 2008، 183).

ويقول الجاحظ: ((نظرنا في الشِّعر القديم والحديث فوجدنا المعاني تقلبُ ويؤخذ بعضها من بعض، ولا يعلم في الأرض شاعر" متقدم" في تشبيه مصيبُ أو معنى غريب إلا يدعيه فإنه لا يدع أنْ يستعين بالمعنى وعلى هذا تداول الشُّعَراء المعاني من قديم الزمان)). (الجاحظ :1996، 25).

3- أهمية الدراسة :

تتمثل أهمية هذه الدراسة في ستفيد دارسي الأدب عموماً والتاريخ وغيرهم من المهتمين بالشأن الأندلسي، إذ إنها وضحت علاقة الشِّعر الأَنْدَلُسي بالشِّعر المشرقي من حيث الأصالة والتقليد، وأثر الطبيعة بشقيها الصائتة والصامتة.

4- أهداف الدراسة :

تهدف الدراسة إلى :

1- معرفة العلاقة بين الشِّعر الأَنْدَلُسي والشِّعر المشرقي.
2- تحديد أثر الشِّعر المشرقي في شعراء الأَنْدَلُس .
3- بيان خصائص وسمات شعر الطبيعة في الأَدَب الأَنْدَلُسي .
4- عرض نماذج من شعر الطبيعة في الأَنْدَلُس لدى المشارقة والأَنْدَلُسيين .

5- منهج الدراسة :

اتبعت في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي.

6-حدود الدراسة

جعلت إقليم الأَنْدَلُس محلاً للحدود المكانية، أما الزمانية فقد امتدت الدراسة وشملت العصور الأَدَبية من العصر الأَوَّل حتى الخامس، والموضوعية عن شعر الطبيعة.

7-أقسام الدراسة:

تتكون الدراسة من الإطار العام، ثم الإطار النظري، ويشتمل على أربعة مباحث، وخاتمة، وفهرس المصادر والمراجع.

الإِطارُ النظري للدِّراسة

لما دخل العربُ الأَنْدَلُس لأول مرة، انشغلوا بالغزو والحرب وتوطيد دعائم الأمن في دولتهم الوليدة، وتنظيم الملك والدولة، فلم يتح لهم ذلك فراغاً يهدأون فيه لنظم الشِّعر وقرضه، وبعد أَنْ استراحوا من الفتح رجعوا إلى طبيعتهم المتأصلة فيهم وإلى الملكة التي نشأوا عليها، وورثوها في دمائهم وهي قرض الشِّعر، فالشِّعر عندهم يمثل غذاءهم الروحي، ومتعتهم النفسية، ومرآة لحياتهم الاجتماعية العقلية والسياسية فالعربي

يتغني به في حله وترحاله، يصدر فيه ما يجيش بخلده من حب وغضب ويرسم فيه ما يحيط به من جمال الطبيعة وتلهمه به هذه الجنة الساحرة من روائع القصيد.

وكان الشِّعر أسبق أَنْواع الأَدَب والفنون، والمولود الأَوّل للأَنْدَلُسيين في هذه البيئة الجديدة فانتشر سريعاً بين جميع الطبقات في المجتمع الأَنْدَلُسي، وأَقبل الناس على نظمه الأُمراء والخلفاء، والوزراء، والفقهاء والحكماء ،والأَدَباء وغيرهم، يقول في ذلك ابن حيان: ((باستطاعة الفلاح الذي يحرث الأرض أَنْ يرتحل إلى الشِّعر في أَيِّ موضوع يعنُ له)). ولذلك يمكن القول أَنَّ الشِّعر الأَنْدَلُسي امتداد للشِّعر في المشرق ؛ فقد كان الأَنْدَلُسيون متعلقين بالمشرق ومتأثرين بكل جديد فيه عن طريق الكتب التي تصل إِليهم منه، أو العلماء الذين يرحلون من المشرق أو الأَنْدَلُسيين الذين يفدون إلى الشرق للحج أو لطلب العلم، وكانوا في بداية أمرهم مقلدين للمشارقة ويبدو ذلك واضحاً في أَلْقاب الشُّعَراء وفي معارضاتهم لشعراء المشرق، ولكن هذا التقليد لم يمنعهم من الإبداع والابتكار والتميز بميزات تخصهم نتيجةً لعوامل كثيرة .وقد مثل الشِّعر ركناً من أركان الحضارة العربية والأَنْدَلُسية حيث عبر عن قوالب تلك الحضارة وعن مضمونها وكان شعر الطبيعة من أَكثر الأَجناس الشِّعرية ازدهاراً في الأَنْدَلُس. ونقف فيما يلي على جوانب من شعر الطبيعة في الأَنْدَلُس لنبين مدى الأَصالة والتقليد فيه كنموذج للشِّعر الأَنْدَلُسي .

المَبْحَثُ الأَوَّل :

مفهوم شعر الطبيعة وبواعِثُه في الأَدَب الأَنْدَلُسي

أولاً: مفهوم شعر الطبيعة :

يُقصدُ بشعر الطبيعة في الأَدَب العربي الشِّعر الذي يتناول بالتعبير قسمين رئيسين : الطبيعة الصائته ؛ وهي ما اشتملت عليه الطبيعة من الكائنات الحية المتحركة ذات الصوت سوى الإنسان، وذلك كأنواع الطيور والحيوانات المختلفة؛ لأنه ما من كائن حيّ منها إلا وله صوت مميز مهما تقاربت صوره وأَنماطه، ثم الطبيعة الصامتة ويقصدون بها ما اشتملت عليه الطبيعة من أنواع ثلاثة :

الجمادات الطبيعية المختلفة سواء ما سكن منها ؛ كالأرض وجبالها وكثبانها ..إلخ وما تحرك منها كالأنهار والبحار والغِدران وبقية المائيات، والنباتات المختلفة وما يتصل بها : كالرياض والبساتين والأزهار والأَشْجَار إلى غير ذلك، والظواهر الطبيعية المختلفة : كالشَّمس والقمر والنجوم والكواكب والرعد والبرق والرياح والنار والليل والنهار والربيع والشتاء والصيف ... وقسم بعضهم الطبيعة الصامتة إلى طبيعة طبيعية وهي التي أشرنا إليها وأَخرى صناعية وهي التي يرجع إلى الإنسان فضل تأليفها وتنسيقها كالقصور والبرك المائية والنوافير وغير ذلك من كل مظاهر الجمال المصنوع، وإذا نظرنا إلى شِعْر الطبيعة في الأَدَب العربي منذ نشأته نجده قد شمل كل ما يحتويه كتاب الكون المنظور سوى الإنسان وبذلك يكون قد تناول الطبيعة الصائته والطبيعة الصامته معاً فهو إذن الشِّعر الذي يصور الطبيعة بنوعيها الصائت والصامت، وقد عَرِفَ الشَّاعر العربي القديم هذا الفن الشِّعري في زمن مبكر ثم تابع شعراء العربية عنايتهم بتصوير الطبيعة بقسميتها في المشرف العربي حيناً وفي مغربهم بالأَنْدَلُس حيناً آخر على تفاوت بينهم في درجات التوفيق النفسي والفني.

ثانياً: أَسبابُ شعرِ الطَّبيعَةِ وبواعِثُه في الأَدَب المشْرِقيِّ :

وصل شعرُ الطبيعة في ظل الدولة الحمدانية على أيدي شعراء حلب بالشام إلى قمته، إذ إنَّ القصر الحمداني بحلب قد جمع حوله وبين جنباته من عشاق الطبيعة نقراً غير قليل من الشُّعَراء وجهوا عنايتهم الكبرى إلى هذا اللون الأَدَبي، واستنفذوا كل طاقاتهم الإبداعية في عرض نماذجه ولعل ذلك يرجع إلى أَسباب وبواعث يتصل بحياتهم وظروفهم وطبيعة عهدهم أهمها أمران : الأَوَّل أمر" بيئي يرجع إلى طبيعة هذا الإقليم وجمال بيئته التي بث فيها الله ألواناً من الجمال ما يحرك الشَّاعر، والثاني أمر" نفسي" يرجع إلى وجود شاعر العربية الأكبر على قمة الحياة الأَدَبية في عهدهم " المتنبي " الذي كان يسد عليهم الأفق على سعته ويغلق عليهم منافذ القول في المدح أمام سيف الدولة، فلم يجد الشُّعَراء عزاء وسلوى لهم غير القول في الطبيعة فانطلقوا يصفون بيئتهم الحلبية المترفة بالحسن الناطقة بأَلْسِنةِ الجمال، خاصة وأنهم قد وجدوا في المتنبي ما يشبه العزوف عن هذا اللون الشِّعري ؛ لعدم قربه من تكوينه النفسي الطموح الذي لا يرضي بغير الولاية أو الإمارة بديلاً لذلك نجده وقد سخر كل طاقته في المديح الذي يتخذه وسيلته المثلى إلى غايته الكبرى .

من أجل ذلك لقد توجه الشُّعَراء الحلبيون إلى هذا الفن الشِّعري وكادوا يتخصصون فيه، وقد برع منهم من حمل اللواء وتقدم الركب وهو شاعر الطبيعية أبوبكر الصنوبري، ثم كوكبه من الشُّعَراء ساروا في ذات الاتجاه أمثال السري الرفاء، وكشاجم، وإبي الفرج، وأبي العباس النامي والوأواء الدمشقي وغيرهم ممن تحدثت عنهم يتيمية الدهر للثعالبي بإفاضة وإعجاب، حيث يتقدم الصنوبري شعراء عصره في الهيام بمحاسن الطبيعة فأكثر الحديث عنها وقسم القول فيها إلى أبواب متميزة .

بَابُ الرَّوضاتِ يتحدثُ فيه عن سحر الحدائق والبساتين، وبابُ الزَّهريات يصف فيه الأقحوان والسوسن والشقيق والنرجس والسرين والورد والياسمين، ولم يكتفِ بذلك بل يقيم المناظرات بين نوع ونوع ويفضل صنفاً على صنف، وقد تقدم على بن العباس الرومي إلى نحو ضئيل من ذلك، وأصبح فن المناظرات الشِّعرية بين الأزهار على يد الصنوبري بدعة العصر حتى عُرف بعض الشُّعَراء بالتعصب لنوع من الأزهار فعُرِف الوأواء الدمشقي بحب النرجس، والسري الرفاء بحب الورد الأحمر، وأشتهر أبوبكر الخالدي بوصف شقائق النعمان.أما الثمار فقد أكثروا فيها من لارنج وليمون وبطيخ وشمام وتفاح، وفي مجال المائيات فقد عنوا بالحديث عنها وتفصيل أوصافها مثل السحاب والنهار والسواقي والبرك والثلجيات وكذلك فاضت أشعارهم بالحديث عن الرَّبيع وبقية فصول السنة من صيفٍ وشتاءٍ وخريفٍ.

وإذا استقرأنا هذه الأشعار نجدها – على كثرتها– تتشابه وتتقارب في الاعتماد على الصورة الحية، ويقل فيها التعاطف الوجداني الذي يندمج معه الشَّاعر في الطبيعة التي صورها، حتى لا تجدُ فروقاً واضحة بين شاعرٍ وآخر.

ثالثاً: نماذجُ من شعرِ الطَّبيعةِ عندَ المشارِقَةِ :

سنعرض فيما يلي نماذجاً من شعر الطبيعة قالها عملاقة الشُّعَراء في المشرق، وهؤلاء العملاقة هم الذين تتيح لهم شهرتهم وتمكنهم أنْ يكونوا قدوة تحتذى، وهم بمثابة القادة والرواد الموجهين للأدب في المشرق والمغرب .

قال أبو تمام يصف الربيع:

رق حواشي الدهر فهي تمرمر *** وغدا الثرى في حلـــيه تتكسر

نزلت مقدمة المصـــيف حميدة *** ويد الشتاء جديـــــدة لا تكفر

لولا الذي غرس الشتاء بكفـــه *** لاقي المصيف هشائماً لا تثمر

من كل زاهرة ترقرق بالنَّدى *** فكأنها عيـــــــــن إليك تحدَّر

مصـــفرة محـــمرة فكأنـــها *** عصب تيمن في الوغى وتمضر

(أبو تمام : 1972، 191).

وإلى شاعر آخر وقد اجتمعت له المقومات ليكون شاعراً ممتازاً في الطبيعة، وتدل سيرته على أنَّه كان محباً للتجوال كثير الرحلات، ويألف الرياض من النضرة والحدائق الملتفة، ويميل إلى الغناء والمداعبة، وإنَّ حبه للطبيعة كان عميقاً وهو أبوبكر محمد بن أحمد الصنوبري (ت334هـــ) إذ يقول :

يا ريم قومي الآن ويحك فانظري *** ما للربا قد اظهرت إعجابها

كانت محاسن وجهه محـــجوبة *** فالآن قد كشف الربيع حجابها

ورد بدا يحكي الخدود ونرجـــس *** يحكي العيون إذا رات أحبابها

وشقائق من المطارق قد بـــدت *** حُمراً وقد جعل السواد كتابها

لو كنت أملك للرياضِ صـــيانة *** يوماً لما وطئ اللئام ترابها

وكذلك يقول الصنوبري في وصف نهر حلب المسمى " قويق "

قويق" إذا شم ريح الشتاء *** أظهر تيـــــهاً وكـــبراً عجيبا

وإنْ أقبل الصيفُ أبصرتَه *** ذليلاً حقـــــيراً حزيـــناً كئيبا

إذا ما الضفادع نادينـــــه *** قويق" قويـــق" أبي أنْ يجيبا

وتمشي الجرادُ فـــــــيه *** فلا تكاد قوائـــــمها أنْ تغيبا

فالشَّاعر يصف النهر الذي كان يعْمرُ بالماء شتاءً فيشعر بالخيلاء والزهو ويجف صيفاً فتصيح فيه الضفادع شاكية ناقمة متذمرة عما يشعر النهر بالضعف والهوان .

وكذلك من شعر الطبيعة قول أبي العباس النامي في وصف السحاب وبكاء المزن وضحك الرياض.

خَليلَيَّ هَلْ لِلْمُزْنِ مُقـــــلَةُ عاشِقٍ ***أَمْ النَّارُ في أَحْشائِها وَهْـــيَ لا تَدْري

سَحابٌ حَكَتْ ثَكْلى أُصيبَت بِواحِدٍ ***فَعاجَتْ لَهُ نَحْوَ الرِّيـــاضِ على قَبْرِ

تَرَقْرَقُ دَمْعاً في خُـــدودٍ تَوَشَّحَتْ ***مَطارِفُها بالْبَـــرْقِ طِـــرزاً مِنَ التِّبْرِ

فَوَشْيٌ بِلا رَقْمٍ وَنَسْـــجٌ بِلا يـــدٍ *** وَدَمْعٌ بِلا عَـــيْنٍ وَضِـــحْكٌ بِلا ثَغْرِ

فالإبداع يظهر ويتجلى في أنَّه تجاوز الصورة الحسية البصرية إلى الوصف النفسي محاولاً استكناه السحابة واستيطانها وخلع الحياة عليها وإبراز عاطفة متقدة نحوها متخذاً منها صورة لفؤاده المعذب وهذه

الكثرة الحسية في الكم والرؤية النفسية المتواضعة في الكيف هو المدى الذي وصل إليه شعر الطبيعة الصامته بالمشرق في بيئه لم يظفر في آية بيئة مشرقية بمثل ما حظي به في كنف الحمدانيين بالشام ازدهاراً وقوةً ونماءً .

المَبْحثُ الثَّانِي

شعرُ الطَّبيعةِ في الأَدَب الأَنْدَلُسي عواملُ ازدهارِه

أولاً: موضوعات الشعر الأَنْدَلُسي عامة :

طرق الأَنْدَلُسيون في شعرهم كافة فنون الشعر، من الزهديات إلى التهكم. ونظموا قصائد الحماسة، والنسيب، والرثاء، والهجاء، والوصف بصفة خاصة وقد أطنب الشُّعَراء في وصف جمال الأَنْدَلُس وتصوير سهولها الممرعة وحدائقها الغناء ومياهها الدافقة وثمارها اليانعة وأطيارها الصادحة ومما تغني به بن خفاجة (ابن خفاجة:2008، 34) قوله:

يا أهل أَنْدَلُـــس بالله دركم *** ماءُ وظلُ وأنـــهارُ وأشجارٌ

ما جنة الخلد إلا في دياركم ***ولو تخيرت هذي كنت اختار

وإذا كان المرء إلى حد كبير ابن بيئته، فقد كان لمناخ هذه البلاد، وطبيعتها تأثير جليٌ في طباع أهلها، وأمزجتهم وميولهم ونزعاتهم وطرق معيشتهم، وبالتالي في فنونهم وآدابهم ومختلف ألوان نشاطهم وإبداعهم.

وإذا كان الأَدَب نتاجاً للبيئة، وكانت شخصية الأَديب وليدة الظروف المحيطة به والتي تعدو الطبيعة من أهم مكوناتها فمن الطبيعي أَنْ يصف شاعرنا القديم رحابة الصحراء وامتداد الأفق، وصفاء السماء، ولمعان النجوم، سرى الليل، وعدو الخيل، وكان من حق الشاعر الأَنْدَلُسي أَنْ يصف الرياض والحياض، والجبال والوديان، والأزهار والأطيار والظلال، والمياه وغيرها من مفردات الطبيعة.

ومن خلال استقراء الشعر الأَنْدَلُسي يظهر لنا وصف الطبيعة لدي معظم الشُّعَراء، وأَنَّ الشاعر الأَنْدَلُسي كان كثير التجارب مع بيئتة الجديدة وطبيعة بلاده الجميلة، ومن هنا يمكن القول بأَنَّ شعر الوصف بصورة عامة ووصف الطبيعة بصورة خاصة قد شغل حيزاً واسعاً في ذهنية الشاعر الأَنْدَلُسي إلى درجة لم يكن لها مثيل عند أَقرانه من شعراء الأقاليم الأُخرى، وذلك نتيجة لاستجابته لمؤثرات البيئة وما انطوى عليه بلاد الأَنْدَلُس من مشاهد الفتنة ومظاهر الحسن، وهكذا انفعلت نفوسهم بما استشعرت حولها من عناصر الجمال، وفاضت قرائحهم ببديع القول تجاه تلك الربوع التي شغفوا بها وكان ابن خفاجة شاعر الطبيعة الأَوَّل كان ينطق عن كل أَنْدلوسي: ولعل أبرز ثمرة من ثمار البيئة الأَندلوسية الجديدة في الشهر العربي، هو انعطاف هذا الشعر في كثير من نماذجه إلى الطبيعه وتصوير مشاهدها وما كان من تغلغل مظاهرها في كثير من أغراض الشعر الأَنْدَلُسي .

هكذا دخلت الطبيعة حياة الأَنْدَلُوسيين وخالطت نفوسهم وتغلغلت في أشعارها.

ثانياً :عواملُ ازدهارِ شعرُ الطَّبيعةِ في الأَدَب الأَنْدَلُسي :

من عوامل ازدهارشعر الطبيعة في الأَدَب الأَنْدَلُسي :

1- جمال الطبيعة الآسرة في بلادهم .
2- ازدهار الحضارة العربية في الأَنْدَلُس ازدهاراً كبيراً.
3- كثرة مجالس الأنس والبهجة واللهو.

هذه العوامل مجتمعة وغيرها قد ساعدت على ازدهار شعر الطبيعة في البيئة الأَنْدَلُسية، عليه يمكن القول أَنَّه من بواعث الأَنْدَلُسيين إلى الإحساس بالطبيعة وقول الشِّعر فيها جمال الطبيعة الآسرة في بلادهم، إذ إنَّ طبيعة الأَنْدَلُس بين طبائع البلدان كطبيعة الربيع بين الفصول والأيام، صاغها الله آية رائعة من فرائد آياته ومثلاً نادراً من بدائع آثاره فجاءت كما يشاء الفن الرفيع الآسر عروس الكون وغرة الأوطان، وفتنة الآفاق، فقد حبا الله الأَنْدَلُس طبيعة فاتنة تمتد في بطاحها السهول الواسعة الخصبة، وتجري فيها الجداول والأنهار وتغرد على أفنانها العنادل والأطيار وتنساب في مراعيها المعشوشبه الماشية والأنعام، ويعمل الفلاحون نشطين فرحين في حقولها المعطاة ويعطر النسيم العليل جوها المعتدل البليل وتنثر شمس المساء بمنثور الذهب أفقها الرَّحب وقت الغروب فينعكس على صفحات المياه ويجعل عالم السماء في شبه الجزيرة مترعاً بالضوء، ثرياً بالصور غنياً بالنغمات الموسيقية الحالمة مما جعل الطبيعة الأَنْدَلُسية نفسها هي الشِّعر ومن هنا شغفت بها قلوب الأَنْدَلُسيين وهامت بها نفوسهم وتعلقت بها أفئدتهم وفتنوا بها حتي حسبوها جنة الخلد بمائها النمير – وظلها الظليل، حتي ظنوا أنَّ الله قد عجل لهم بها في الدنيا ليريهم آية من آياته وصورة من جمال جناته ويقول في ذلك شاعرُهم ابن خفاجةِ:

يا أهـــــــــــلَ أَنْدَلُس لله دركم *** ماءً وظل" وأنهار" وأشجار
ما جنة الخـــــلد إلَّا في دياركم *** ولو تخيرتُ هذه كنت أَختار

لا تخشوا بعدها أنْ تدخــلوا سقراً *** فليس تدخل بعد الجــنة النار

(ابن خفاجة: 2008، 35)

ينظر الشاعر إلى مفردات الطبيعة من الماء والظل والأنهار والأشجار وكأنها غاية في هذه الدنيا، ويعقد مشابهه بين طبيعة الأَنْدَلُس وجنة الخلد، فالشاعر أصبح ينظر إلى كل مفردات الحياة من خلال مكونات الطبيعة الأَنْدَلُسية فكان الشاعر شديد الحب لوطنه وتعلقه به وحنينه إليه.

وقد أطنب الجغرافيون والمؤرخون المسلمون في وصف طبيعة الأَنْدَلُس وأثرها في نفوس أدبائها وشعرائها وتوجيه ملكاتهم وطاقاتهم الفتية إلى وصفها وتصويرها والتفاعل معها ومن ذلك قول المقري: ((وهم أشعر الناس فيما كثره الله في بلادهم وجعله نصب أعينهم من الأشجار والأنهار والأطيار، لا ينازعهم أحد " في هذا الشأن وأَمَّا إذا هب النسيم ودار كأس في كف ظبْيٍّ ورخيم، وصفق للماء خرير"، وأورقت العشبة، وخلعت السحب إيرادها الفضية والذهبية أو تبسم عن شعاع ثغرُ نهرٍ أو ترقرق جفن زهر أو خفق بارق" أو وصل طيف طارق أو وعد حبيب غرار من الظلماء تحت جناح وبات مع من يهوى كالماء والراح فاولئك هم السابقون السابقون الذين لا يجارون ولا يلحقون وابن خفاجه سابقهم إلى هذا المضمار الحائز في قصب الرهان وقد أعانهم على الشِّعر أنسابُهم العربية وبقاعهم النضرة وهممهم الأبية)) ((المُقَرِّي 2008م، 160) فقول المقري هذا دليل على أَنَّ مظاهر الطبيعة الجميلة التي كثرها الله في الأَنْدَلُس هي التي أثارت في أهلها جذوة الشَّاعرية ووجههم إلى هذا اللون من الأَدَب في شعر الطبيعة.

لم يكن جمال الطبيعة في الأَنْدَلُس هو وحده الذي ساعد على ازدهار شعر الطبيعة هذا، بل أنَّ حياة المجتمع الأَنْدَلُسي أثرت أيضاً في تطور هذا اللون الشِّعري الذي يمثل تعلق الشُّعَراء الأَنْدَلُسيين ببيئتهم وتفضيلها علي غيرها من البيئات. ولكون الشِّعر عندهم يصف طبيعة الأَنْدَلُس سواء الطبيعية أو الصناعية، فهم يصورونها عن طريق الطبيعة كما أبدعها الله في الحقول والرِّياض والأنهار والجبال والبرك والأحواض وغيرها .

وقد كان وصف الطبيعة في الشِّعر العربي منذ العصر الجاهلي إذ وصف الشُّعَراء الصحراء وتفننوا في وصفها ولكن هذا الوصف لا يتعدَ الجانب المادي، وفي العصر الأموي والعباسي عندما انتقل العرب المسلمون إلى البلدان المفتوحة وارتقت حياتهم الاجتماعية، أضافت إلى وصف الطبيعة وصف المظاهر المدنية والحضارية وتفننوا في ذلك فقد وصف الطبيعة الشُّعَراء العباسيين أمثال: الصنوبري، وأبي تمام وأبي بكر النجدي الذي عاش في بيئه حلب ولكن أَضاف الأَنْدَلُسيون على هذا الموضوع حتى أصبح من الأغراض والموضوعات التي عرف بها أصل الأَنْدَلُس .

ومن العوامل التي ساعدت على ازدهار شعر الطبيعة في الأَنْدَلُس إِضافة إلى جمال الطبيعة والبيئة الأَنْدَلُسية نجد ازدهار الحضارة العربية في الأَنْدَلُس ازدهاراً كثيراً مما شمل جميع جوانب الحياة الأَنْدَلُسية وازدهار مجالس الأنس والبهجة واللهو، حيث كانت هذه المجالس تعقدُ في أحضان الطبيعة.

ثالثاً: الطبيعة والمرأة:

اعتاد الشُّعَراء عرباً وأعاجم تشبيه محاسن المرأه بمفاتن الطبيعه كأنْ يجعلوا قدها كالغصن وشعرها كالليل، غير أنَّ شعراء الأَنْدَلُس كانوا بحكم بيئتهم أكثر تجاوباً من سائر شُعَراء المشرق مع مشاهد الطبيعة التي حفلت بها بلادهم الجميلة، وكان من المنطقي تبعاً لذلك أنْ تشيع معاني الطبيعه في موضوعات الغزل ويسري نسقها في عناصر تصوير جمال المرأة فها هو ذا المعتضد العبادي (المعتضد :1975، 116) يصف ليلةَ لهوٍ وشراب ويقول متغزلاً:

نضد بردها عن غصن بانٍ مُنعم *** نضيراً كما أنشق الكمام عن الزهر

وعلي العكس من ذلك عندما تغدو الطبيعة لدى الشاعر متسمة لملامح المرأة وهكذا يصور ابن سهل الإشبيلي بهاء الطبيعه مستعيراً لها معنى الغزل وواجداً في الأرض امرأة حسناء تتبرج بزهوٍ (مؤنس:2005، 112)

الأرض قد لبست رداءً أخضرا *** والطل ينثر في رباها جوهرا

وكأنَّ ســـوسنها يصافح وردها *** ثغر يقبل منـــــــه خداً أحمرا

وعلي هذا الغرار يتم التبادل والتقابل في الشعر الأَنْدَلُسي بين عنصري الطبيعة الجميلين: الطبيعة والمرأة علي أنَّ الطبيعة تتجلى أكثر في غزل بن زيدون حين يصعب في كثير من الأحيان التمييز بين ملامح المرأة وبين مشاهد الطبيعة، وفي نونيته المشهورة مثالاً على هذه الظاهرة في شعر الأَنْدَلُسيين عامة وفي شعر بن زيدون بوجهة خاص ومن ذلك قوله:

الهوى في طلوع تلك النجوم *** والمنى في هبوب ذاك النسيم

وتبلغ الظاهرة مداها عند ابن خفاجة شاعر الطبيعة الأكبر في الأَنْدَلُس حين يزاوج بين الطبيعه والمرأة في أكثر شعره، إذ كان الشُّعَراء قد درجوا علي تشبيه المرأة بما يناسبها من مشاهد الطبيعة فابن خفاجة يجنح في أكثر شعره الوصفي إلى تصوير الطبيعة امرأة فاتنة الحسن بضة الجسد، فالأراكة ليست سوى فتاة طروب في قوله:

فكأنها وكأَنَّ جدول مائها *** حسناء شد بخصرها زنار

أي هي غادة كثيرة التثني ازدهت بأبهى حلي وازدانت بأحلى زينة

وصقيلة الأنوار تلوي عطفها *** ريح تلف فروعها معطار

فالنور عقد والغصون سوالف *** والجزع زندَ والخنيج سوار

هكذا تراءت المرأة للأَنْدَلُسيين صورةً زاهيةً من جمال الطبيعة ومظهراً فاتناً من مظاهر حسنها، ومن قبل لمس المقري في كتابه نفح الطيب هذه الظاهرة المميزة عند الأَنْدَلُسيين فقال: "أنهم إذا تغزلوا صاغوا من الورد خدوداً، ومن النرجس عيوناً ومن الآس أصداغاً ومن السفرجل نهوداً ومن قصب السكر خدوداً ومن قلوب اللوز وسرر التفاح مباسماً ومن ابنة العنب رضاباً" ((المُقَرِّي، 2008).

المَبْحثُ الثَّالثُ

خصائصُ وسماتُ شعر الطبيعة في الأَنْدَلُس

– أفرد شعراء الطبيعة في الأَنْدَلُس قصائد مستقلة ومقطوعات شعرية خاصة في هذا الغرض، بحيث تستطيع هذه القصائد استيعاب طاقة الشَّاعر التصويرية وخياله التصوري على غير الالتزام الذي تسير عليه القصيدة العربية، فلم يترك الشَّاعر الأَنْدَلُسي زاوية من زوايا الطبيعة إلا وطرقها.

– يعتبر شعر الطبيعة في الأَنْدَلُس صورة دقيقة لبيئة الأَنْدَلُس، ومرآة صادقة لطبيعتها وسحرها وجمالها، فقد وصفوا طبيعة الأَنْدَلُس الطبيعية والصناعية ممثلة في الحقول والرياض والأنهار والجبال وفي القصور والبرك والأحواض .

– تُعد قصائد الطبيعة في الشِّعر الأَنْدَلُسي لوحات بارعة الرسم أنيقة الألوان محكمة الظلال تشد انتباه القارئ وتثير اهتمامه.

– أصبح شعر الطبيعية نظراً للاهتمام به يحل محل أبيات النسيب في قصائد المديح، بل أَنَّ قصيدة الرثاء لا تخلو من جانب من وصف الطبيعية.

– أصبحت الطبيعة بالنسبة لشعراء الأَنْدَلُس ملاذاً وملجأً لهم يبثونها همومهم وأحزانهم، وأفراحهم وأتراحهم إلَّا أنَّ جانب الفرح والطرب غلب على وصف الطبيعة فتفرح كما يفرحون، وتحزن كما يحزنون.

– وصف الطبيعة عند شعراء الأَنْدَلُس مرتبطاً ومتصلاً بالغزل والخمر ارتباطاً وثيقاً، فوصف الطبيعة هو الطريق إليها فكانت مجالس الغزل والخمر لا تُعقد إلا في أحضان الطبيعة .

– المرأة في الأَنْدَلُس صورة من محاسن الطبيعة، والطبيعة ترى في المرأة ظلها وجمالها.

كان للزهرِ حيز" كبير" في الشعر الأَنْدَلُسي يعدل ما كان له من شأنٍ في حياة الأَنْدَلُسين عامة، ومن قبل عني شعراء العرب في ربوع جزيرتهم بوصف أزهار البراري على ندرتها فوصفوا نبات الشيح والعوار والرند بنفحاتها الناعشه وشذاها العطر.

وقد دأب الشُّعَراء على وصف الورد والياسمين والريحان والنور والبهار والفيلفور والآس والنرجس والبنفسج والخيري والجلنار والسوسن فأكسب ذلك شعر الطبيعة غزارة ميزته حتى أصبح أبرز الظواهر التي اتسم بها الأَدَب الأَنْدَلُسي.

وكان من ملامح وصف الطبيعة في الشعر الأَنْدَلُسي الإيغال في التصوير القائم على التزيين والتلوين جرياً على ما عرف به الأَنْدَلُسيون من ميل إلى الزخرفه والزينة، والشاهد على ذلك ما نجده عند بن عبد ربه الذي نظم في فصول كتابه الكبير عقداً فريداً ورصع رأس كل فصل من فصوله بجوهرة تغاير سائر الجواهر في بهائها وتألقها، وكذلك نجد ذلك في ما عمد إليه ابن حمديس في مطلع إحدى قصائده حين استرعى منظر البرد المنتشر على الأرض صورة قلائد الدر التي تطوق نحور الغيد أو ما دأب عليه بن خفاجة في تشبيه ألق الماء بلجين شمس الأصيل وبالذهب وقد بلغ هذا المنحنى في الشعر الأَنْدَلُسي ذروته في فن الموشحات الذي قام أصلا على أعمدة التزيين والتلوين.(مؤنس :1952، 195).

إِنَّ النزعة الكبيرة لدى بعض شعراء الطبيعة في الأَنْدَلُس إلى التلوين والتزيين في العبارات أدت إلى اكتظاظ الصور في أشعارهم التي حفلت بالتشبيهات والاستعارات.(شيحه:1996)

إِنَّ البهجة والمرح والنشوة والحبور قد سبغت معظم الصور والمعاني في شعر الطبيعة الأَنْدَلُسي . ولعل من أبرز ملامح شعر الطبيعة الأَنْدَلُسي اتسامه بالغزارة ثم انفراده في كثير من الأحيان بقصائد خالصة لوجه الطبيعة، على أنَّ هذا الشعر على كثرته قد لا يعني تفوقه على نظيره في المشرق، إلا أنه يبقى ظاهرة مميزة في الأَدَب الأَنْدَلُسي لم يكن لها هذا الشأن في سائر الأَدَب العربي في المشرق، حيث كان وصف الطبيعة في معظم الأحيان يعيش على هامش الأغراض الشعرية الأخرى، فهناك شعراء بأعينهم في الأَنْدَلُس عرفوا بهذا اللون من الشعر أي شعر الطبيعة والذين لم يعرفوا به منهم كان للطبيعة أثرها البالغ في سائر أغراضهم وموضوعاتهم وفي صيغ معانيهم وصورهم إلى درجة يمكننا أنْ نقول أنَّ وصف الطبيعة كان بمثابة وتراً أضافه الأَنْدَلُسيون إلى جانب الأوتار الأخرى في غيثارة الشعر العربي وعزفوا من خلاله أبهج الألوان.(جارثيا : 2008).

المَبْحَثُ الرَّابع

نماذج من الوصف في شعر الطبيعة

نعرض فيما يلي بعض الأصناف التي وصفها الشُّعَراء وصوروها في أشعارهم:

(1) الرَّوضِياتُ :

وهو الشِّعر المختص في الرياض وما يتصل بها ومن أَمثله ذلك، الأبيات التي قالها أبو الحسن بن زنباع التي يصف فيها قصة الطبيعة وفعل السحاب والأمطار في الأرض قال :

أبدت لنا الأيامُ زهرة طيـــــــــبها *** وتسربلت بنضيرها وقشيــبها

واهتز عطفُ الأرض بعد خشوعها *** وبدت بها النعماءُ بعد سحوبها
وتطلعت في عنفوان شـــــــبابها *** من بعد ما بلغت عِتِيَّ مشيبها
وقفتْ عليها السحبُ وقفة راحـــــم *** فبكت لها بعيونها وقلـــــوبها
فعجبتُ للأزهار كيف تضاحــكت *** ببكائها وتبـــشرت بقطوبـــها
وتسربلت حـــللاً تجـــــر ذيولـــها *** من لدمها فيها وشـــق جيوبها
فلقد أجاد المــــــزنُ في أنجــادها *** وأجاد حرَّ الشمس في تربيبها

يشخص الشاعر مفردات الطبيعة (ابن زنباع: 1955، 115) ،ويقلع عليها صفات غيرها إجلالاً لها فيصف السَّحابَ بالمنقذ لتلك الزهرة بعد أنْ أصابها الذبول وجنت عليها الطبيعة فقست بقساوتها فسلبت منها النضرة والجمال، وفي ذلك تصور واضح من الشاعر ويظهر الشاعر تعاطفه وانحيازه للزهره فيضحك لضحكها وكأنَّه يريد أنْ يبين لنا تعاون مفردات الطبيعة ومساعدة القوي منها الضعيف.

ومن ذلك قول الشَّاعر الوزير عبد الله بن سماك (ابن السماك: 1972، 27):

الرُوّض مخضرُ الرُّبى متجمل" *** للناظــرين بأجمل الألوان
وكأنما بسطـــت هناك شوارها *** خود زهـــت بقلائد العقبان
والماء مطرد" يســيل لعـــــابُه *** كسلاسلٍ من فضةٍ وجُمانِ
بهجات حسنٍ أكمـــلت فكأنَّـــها *** حسن اليقين وبهجة الإيمان

يصف الشاعر الروض بالحسناء التي تظهر في أروع زينتها مستخدماً في ذلك الصور الخيإلية المتكاملة بين عناصر الطبيعة وكأنَّه ينشد روح التعاون الذي يراه من خلال استكمال صوره بترابط مفردات الطبيعة.

(2) الزهريات :

وهو الشِّعر المختص بالأزهار، وقد وصف الأَنْدَلُسيون الأزهار وأكثروا في هذا النوع من الوصف، فوصفوا الورد والنرجس والشقائق والياسمين والقرنفل واللوز وغير ذلك مما وقعت عليه عيونهم في تلك الطبيعة الخلابة، فهذا ابن حمديس يُرثي باقة ورد أصابها الذبول فتحرقت حزناً وآسًى يقول :

يا باقة في يميني بالردى ذبلت *** أذاب قلبي عليها الحزن والأسف
ألم تكوني لتاج الحسن جوهرة *** لما غرقت فهلاً صانك الصَّدفُ

يتخذ الشاعر من باقة الورد التي أصابها الذبول إنساناً مات من الأسى والحزن، (ابن حمديس: 1998، 140) وهو تشخيص بليغ ينم عن قدرة الشاعر الفائقة في عقد المقارنة بين الأشخاص والطبيعة كجامع الحياة والنضارة.

ومن ذلك أبيات في زهرة الياسمين للمعتضد بالله عباد بن محمد بن عباد يصفها مشبهاً إيَّاها بكواكب مبيضة في السماء، ويشبه الشعيرات الحمراء التي تنسرح في صفحتها نجد حسناء بدا ما بدا فيه من آثار فيقول :

كأنَّما يا سميننا الغــضَّ كواكب" في السماء تبيضُّ

والطرقُ الحمرُ في جوانبه كخد حسناء مسه عضُّ

تتضح قدرة الشاعر التشبيهية التي تفوق الخيال (ابن عباد: 1975، 45) وذلك من خلال التشبيه المركب إذ جعل من زهرة الياسمين لشدة بياضها بالكواكب التي تطل في آفاق السَّماء في ظلام الليل ثم يجعل من الشعيرات المتدلية على صفحتها بالحسناء وما ذلك إلا لارتباط الشاعر بالطبيعة، وهو ملمح غزلي لأن المرأة في الأَنْدَلُس صورة من محاسن الطبيعة.

(3) الثمريات :

وهو الشِّعر المختص بالأثمار والبقول وما يتصل بها :

فقد وصف الأَنْدَلُسيون الثمرة نفسها فوصفوا التفاحة والسفرجل والرمانة والعنب وحتى الباذجان وأَبدعوا في ذلك كثيراً، يقول أبو عثمان المصحفي وقد تامل ثمرة السفرجل

ومصفرَّة تختال في ثوب نرجس *** وتعبق عن مســـــكٍ زكيِّ التنفس

لها ريحُ محبوبٍ وقسوة قلـــــبه *** ولونُ مـــحب حُلَّة السقم مكتسي

فصفرتها من صفرتي مستعارة *** وأَنفاسها في الطيب أنفاسُ مؤنس

فلما استتمت في القضيب شبابها *** وحاكت لها الأنواء ابراد ســـندس

مددتُ يدي باللطف أَبغي قطافها *** لأجعلها ريحانتي وسط مجلســـي

وكان لها ثوب" من الزغب أغبر *** يرف على جسم من التبر أملس

فلما تعرَّت في يـــدي من لباسها *** ولم تبق إلا في غلالة نـــرجس

ذكرت بها من لا أبـــوح بذكره *** فأذبلها في الكف حـــــرٍّ تنفس

الذي يلاحظ أنَّ شعراء الطبيعة يتخذون من وصف مكوناتها مَعْبراً لعقد عدة تشبيهات فيبثون صوراً من الخيال والتشخيص وملمح الغزل (المصحفي : 1983، 46) واضح فيها كما في حديث هذا الشاعر عن ثمرة السفرجل التي جعلها فتاةً وأقلع عليها كل صفات الدلال فهذه الصورة عبارة عن تاريخاً لحياة السفرجل منذ كانت تختال على شجرتها باللوانها وريحها وروحها إلى أنْ ذبلت في كف الشاعر.

(4) المائيات :

وهو الشِّعر المختص بوصف الأنهار والبرك والسواقي ومن ذلك ما وصف به ابن حمديس بركة من الماء في أحدِ القصور وقد احتوت على تماثيل لأُسُود تقذف الماء من أفواهها، ولعل لفن النقش والنحت والزخرفة الذي كان سائداً آنذاك أثر" كبير" في جمال هذه الصورة التي رسمها الشَّاعر بكل براعة .

إذ يقول :

وضراغم سكنت عرين رياسة *** تركت خرير الماء فيه زئيراً

فكانما خشىَّ النضارُ جسـومها *** وأذاب في افواههـا البلورا

أسْد" كأَنَّ سكونها متحرك" في النفس لو وجدت هناك مُثيراً

وتذكرت فتكاتها فكأنَّما أقعت على أدبارها لتثورا

وتخالها والشمس تجلو لونها ناراً *** والسنـتها اللواحس نورا

فكأَنَّما سلت سيوف جـداولٍ *** ذابت بلا نار فعدن خريرا

وكأَنَّما نسج النسيم لمائه درعـاً *** فقدَّر سـردها تقديراً

وبديعة الثمرات تعبر نحـوها *** عيناي بحر عجائب مسجورا

شجريةٍ ذهبيةٍ نزعـت إلى سحر يُؤَثِّر في النُّـهى تاثيراً

قد سرَّحت أغصانها فكأَنَّما قبضت بهن من الفضاء طيورا

على الرغم من غرق الشاعر الأَنْدَلُسي في لجج الطبيعة لكن لم يزل في أواخر مخيلته المكوِّن الأَوَّل لشخصية الشاعر العربي من إظهار القوة والاعتداد بالنفس وقد وجد الشاعر (ابن حمديس: 1998، 54) في هذا المنظر ما يعود به إلى عهده الأَوَّل.

(5) الثلجيات :

الشِّعر المختص في الثلج والبرد

ومن الأبيات الرائعة التي قيلت في الثلج تلك التي قالها أبو جعفر ابن سلام المعافري (ت 550 م)

إذ يقول :

لم أر مثل الثـلج في حسـن منظر *** تقرُّ به عين" وتشنـوه نفسُ

فنار" بلا نورٍ يضيء لـه سـناً *** وقطرُ بلا ماءٍ يقلـبه اللـمس

وأصبح ثغر الأرض يفـترَّ ضاحكاً *** فقد ذاب خوفاً أن تقبَّله الشَّمسُ

أكسبت الطبيعة الشاعر الأَنْدَلُسي لونية من الخيال الخصب استطاع بها أنْ يصور كل حركة الحياة من حوله (المعافري: 1973، 11) والتشبيه بين مفردات الطبيعة والإنسان حاضر في مخيلته فيجعل للأرض ثغراً كالإنسان تضحك به كما جعل لها شعوراً للخوف والفرح.

ومن ذلك أبيات" للشاعر ابن زمرك يمدحُ فيها السلطان ويصف الثلج في نفس الوقت فيقول :

يا من به رتـــــب الإمارة تُعْــتَلي*** ومعالمُ الفَخرِ المشيدةُ تَبــــــتنِي

أزجر بـــهذا الــثلـــج حـــــــالاً *** إنَّه ثلج اليقين بنصر مولانا الغني

بسط البياض كــرامة لقــدومـــه *** وافترَّ ثغراً عن كـــرامة مُعتني

فالأرضُ جوهرة" تلوح لمعـــــتلٍ*** والدوح مُزهــرةِ" تفوح لمجتنـــي

سبحان من أعطى الوجود وجوده *** ليدل منه على الجـــواد المُحسن

وبدائع الأكوان في إتقـــــــانها *** أثر" يشيرُ إلى البديـــعِ المتقنِ

كثيراً ما يتخذ الشاعر الطبيعة رمزاً للقوةِ والانتصار فالشاعر هنا يتخذ من بياض الثلج مجالاً للانتصار والتأمل في قدرة الله سبحانه وتعالى في للتفاؤل وشارة (ابن زمرك: 1998، 75) (www.alnosara,wahaa.com2011)إتقان الكون ونظمه.

رواد شعر الطبيعة في الأَنْدَلُس :

من رواد شعر الطبيعة في الأَنْدَلُس الشَّاعر (ابن خفاجة) وقد قال في الجبل حين راح يتامله وهو يفضي إليه :

وأرعنَ طمَّاح الذؤابــــة باذخ" *** يطاول أعنانَ السَّماءِ بغـــاربِ

وقور" على ظهر الفلاةِ كـــأنَّه *** طوال الليالى مفكر" في العواقبِ

أصغت إليه وهو أَخرس صامتٍ *** فحدثني ليل الثرى بالعـــجائبِ

وقال : ألا كم كنتُ ملجأ قــاتلٍ *** وموطــــــن اواهٍ تبــتل تائــبُ

اتخذ الشاعر من هذا الجبل وهو من أشهر مكونات الطبيعة رمزاً للوقار والهيبة وأخذ يصوره وكأنه إنسان تراكمت عليه الخبرات والتجارب فيرشده ويتعلم منه أساليب الحياة. (ابن خفاجة: 1979، 117)

وقال بظلي ... وكم مرَّ بي من مُدلجِ ومأَوبِ

(إِنَّ كلمة قال في قوله: قال بظلي "يقصد بها استراح بظلي وقت القيلولة وليس من القول).

فاسمعنى من وعظه كل عبرة *** يتجرعـــــها عنه لسان التجارب

فسلي بما أبكى وسر بما شجى *** وكان على ليل الثرى خير صاحب

فكان ابن خفاجة بارعاً في تصويره الجبل الذي شبهه بالأخرس، ومزج مشاعره به، مما جعل الصور التي عرضها له نابضة حيه تثير في المتلقى الخواطر والتأويلات، فإذا قارنا قول ابن خفاجة هذا بما قاله قيس العامري قبله في الحديث عن جبل التوباد – إذ يقول :

واجهشتُ للتوباد حيـــــن رأيتُه *** وكبَّر للرَّحْمنِ حيـــــن رآني

فقال مضوا واستودعوني بلادهم *** ومن ذا الذي يبقى على الحَدَثَانِ

في تقديرنا أنَّ ابن خفاجه قد استكمل جوانب الصورة العامة للجبل وانفعل بكل الأحاسيس والخواطر والأفكار أما قيس فكان تصويره للجبل مجرد خاطرة عابرة . (قيس: 1999، 140)

فكأنَّ شعراء الأَنْدَلُس قد غرقوا في الطبيعة وصارت جزءاً من حياتهم وأسر جلَّ تفكيرهم حتى أصبحوا يرون في مظاهر الطبيعة صفات من يحبون واتخذوا من مباهج الطبيعة أداة للتذكر، نلمس ذلك في قول (المالقي) في وصفه جارية تدعي " حسن الورد" .

تذكرت بالورد حسن الورد منبته *** حسناً وطيباً وعهداً غير مضمون

هيفاء لو بعتُ أيامي لرؤيتـــها *** بساعة لم أكن فيها بمغـــــبون

كالبدر ركَّبه في الغصـــن خالقُه *** فما ترى حين تبدو غير مفتـــون

وجد الشاعر الأَنْدَلُسي في شعر الطبيعة سهولة الانتقال ومعبراً إلى أغراضٍ شعريةٍ أُخرى، خاصة الغزل ذلك لقرب العلاقة بين المرأة والكثير من مكونات الطبيعة كالبدر مثلاً والورد والزهر .

نقفُ في ختام قولنا على تجربة ابن زيدون الذي يعده الكثيرون أهم شاعر وجداني في الأَنْدَلُس ارتقت تجربته الشِّعرية على جناح الطبيعة إلى مستوى فنيّ رفيع لم نعهده في أدَب المشرق وقتذاك .

وقصيدته القافية المشهورة تؤكد هذا الجانب الابداعي والتي منها:

إني ذكرتك بالزهـــــراء مشتاقُ *** والأفق طلق" ووجه الأرض قد راق

وللنسيم اعتـــــلال" في أُصائله *** كأنَّه رقَّ لي فاعـتل إشفـــــاق

والروض عن حاله الفضي مبتسم" *** كما حلـلت عن اللـــبات أطـواق

يوم" كأيام لذات لنا انصـــرمت *** بتنا لها حين نـــــام الدهر سراق

نلهو بما يستميل العين من زهـرٍ *** جال النـــــدى فيه حتى مال أعناق

الذاتية يمثل خطوة رائدة في أدب الطبيعة عند العرب ويعد مظهراً من أبرز مظاهر التجديد في شعر الطبيعة الأَنْدَلُسي ، (ابن زيدون : 1967: 15) .

الخاتمة :

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصَّلاة والسَّلام على نبيه خاتم الأنبياء والمرسلين:

بعد أنْ يسَّر لنا الله إعداد هذه الورقة البحثية، نود أنْ أشير إلى أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال وقوفنا على بعض ملامح الأصالة والتقليد في الشِّعر الأَنْدَلُسي وقد ركزنا على غرض من أغراض الشِّعر وهو وصف الطبيعة في الشِّعر الأَنْدَلُسي .

النتائج :

- إنَّ تقليد شعراء الأَنْدَلُس للمشارقة إنَّما هو تقليد" لهم في الشكل العام للقصيدة العربية وما يلزمها من بحور وقوافي وأوزان، شأنهم في ذلك شأن شعراء كل الأقاليم العربية الأخرى، وليس تقليداً في العبارة والمعنى واللفظ كما يرى بعض المؤرخين .
- إنَّ تأخر ظهور الشِّعر الأَنْدَلُسي كان أمراً طبيعياً لانشغالهم في الفترة الأَوَّلى بتأسيس الدولة وتوطينها، وليس انتظاراً منهم ليتقدم المشرق ثم يسيرون على هديه في مجال الشِّعر.
- إنَّ ارتباط شعراء الأَنْدَلُس برصفائهم في المشرق مرده إلى روابط الدم والعروبة واللغة والدين بينهم.
- إنَّ البيئة والطبيعة في الأَنْدَلُس يعدان الحافز الأكبر في تشجيع الشُّعَراء على الإبداع في شعر الطبيعة مقارنة بغيرهم .
- إنَّ معظم الشُّعَراء الأَنْدَلُسيين – إن لم يكن كلهم– كتبوا في الطبيعة حتى أصبح شعر الطبيعة عندهم معبراً لكل الأغراض الشِّعرية الأُخرى .
- اتخذ شعراء الأَنْدَلُس شعر الطبيعة مجالاً للتشخيص وحشد الصورة البيانية أكثر من غيرهم .
- تفوق شعراء الأَنْدَلُس في مجال شعر الطبيعة – في تقديرنا – راجع " إلى البعد النفسي وهو بعدهم عن موطنهم الأَوَّل وإحساسهم بالتغرب فوجدوا في الطبيعة سلوى وتعويضاً عما فقدوه من العيش في أحضان الوطن.

المراجع :

1. إبراهيم بيضون،(1986م)، الأمراء الأمويون الشُّعَراء في الأَنْدَلُس، دار النهضة العربية بيروت، ط1.
2. ابن الرومي، أبو الحسن علي بن العباس(1942م)، ديوان، تحقيق كامل كيلاني، القاهرة.
3. ابن الزقاق، علي بن عطية بن مطرف أبو الحسن، (1964م)، ديوان: تحقيق عفيفة محمود، دار الثقافة بيروت.
4. ابن حمديس، أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر الصقلي،(1998م)،ديوان، تحقيق احسان عباس، دار بيروت.
5. ابن خفاجة، إبراهيم بن أبي الفتح بن عبدالله،(1960م) ديوان، تحقيق د. سعد غازي، ط2 منشأ المعارف الإسكندرية.
6. ابن زنباع، أبو الحسن بن زنباع الصنهاجي،(1955م)، ديوان، طبعة المعارف العثمانية,

7. ابن زيدون، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب، (1967م).ديوان، تحقيق عفيف على عبد العظيم، دار نهضة مصر للطباعة والتوزيع.
8. أبو الحسن حازم القرطاجي، (1966م)، منهاج البلغاء وسراج الأدَباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة.
9. أبو الحسن على بن بسام الشنتريني،(1998م)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق سالم مصطفي البدوي، دار الكتب العالمية بيروت، ط1.
10. أبو القاسم احمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد،(1997م)، ديوان المعتمد بن عباد ملك أشبلية، تحقيق د.حامد عبد المجيد، وأحمد أحمد بدوي، دار الكتب المصرية، ط2.
11. أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدي، (1995م)، ديوان ابن هانئ الأنْدَلُسي، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، ط1.
12. أبوعلي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي،(1972م)، العمدة في محاسن الشعراء وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل بيروت، ط4.
13. أبوعمر أحمد بن عبد ربه الأنْدَلُسي، (1979م)، ديوان ابن عبد ربه، تحقيق محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة بيروت، ط1.
14. إحسان عباس د. ت، تاريخ الأدَب الأنْدَلُسي عصر ملوك الطوائف والمرابطين، دار الثقافة بيروت، ط7.
15. أحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة، (1967م)، بغية الملتمس في تاريخ رجال الأنْدَلُس، دار الكتاب العربي القاهرة.
16. إميليو جارثيا : ترجمة حسين مؤنس، (2005)، الشعر الأندلسي ،دار الثقافة العربية بيروت .
17. جودت الركابي،(1981م)، في الأدَب الأنْدَلُسي،، دار المعارف القاهرة
18. حازم بن محمد بن حسن،(1989م)، ديوان حازم القرطاجني، دار الثقافة بيروت، ط1 سنة
19. حنان إسماعيل أحمد عمايرة، الأثر المشرقي في شعر ابن خفاجة الأنْدَلُسي، مجلة جامعة دمشق، المجلد 27، العدد الأول والثاني، 2011م.
20. سعد الدين إسماعيل ، (1973م)، دراسات أدبية في الشعر الأندلسي، دار الثقافة بيروت.
21. سيد نوفل، (1945م)، شعر الطبيعة في الأدَب العربي، ط القاهرة.
22. الشريف الرضي، محمد بن الحسين بن موسى ،(1961م)، ديوان، دارالمعارف بيروت.
23. صلاح الدين الهادي، (1986م)، اتجاهات الشِّعر في العصر الأموي، مكتبة الخانجي القاهرة، ط1.
24. الصنوبري،أحمد محمد بن الحسن الضبي، 1998م ديوان، تحقيق احسان عباس، دار صادر بيروت.
25. العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله البغدادي،(1971م)، شرح ديوان المتنبي، تحقيق مصطفي السقا وإبراهيم الابياري، ط البابي.
26. عمر الدقاق، د.ت، ملامح الشِّعر الأنْدَلُسي، دار الشروق العربي بيروت.
27. قيس بن الملوح، (1999م)، ديوان، دار الكتب العالمية.

28.محمد عبد المنعم خفاجي، د.ت قصة الأَدَب في الأَنْدَلُس، مكتبة المعارف بيروت.
29.مصطفي صادق الرافعي، (1940م)، تاريخ الأَدَب العربي، القاهرة ط2.
30.المعتضد بن عباد، (1975م)، ديوان: تحقيق السويس تونس.
31.المُقَرِّي ، أبو العباس أحمد المُقَرِّي هو أبو العباس أحمد بن محمد ،1960 م نفح الطيب في غصن أَنْدَلُس الرطيب، تحقيق على عبد الواحد وافي، القاهرة.
32.عبد الحميد شيحة (1996م)، الموشح الأندلسي دار النهضة العربية القاهرة